الكتاب الثاني

الاقطار العربية

المحـــرومة من الاستقلال ، والبـاقية خـارج

جامعة الدول العربية

المغرب العربي :

تونس ـــ الجزائر ـــ مراكش

ليبيـــا

الأمارات العربية :

الكويت ـــ البحرين

الأمارات الساحلية

المغرب العربى

بلاد المغرب

ـ نظرات عامة ـ

تنقسم بلاد المغرب الى ثلاثة أقسام أساسية :

(أ) ـ المغرب الأدنى ، وهو تونس

(ب) ـ المغرب الأوسط ، وهو الجزائر

(ج) ـ المغرب الأقصى ، وهو مراكش

إلا أن كلمة المغرب كثيراً ما تستعمل للدلالة على مراكش وحدها . والدولة القائمة هناك تسمى ـ بصورة رسمية ـ « الدولة المغربية » .

وقد تعود أهالى البلاد المذكورة تسمية مصر وما وراءها من البلاد العربية ـ من اليمن والحجاز إلى الشام والعراق ـ باسم « المشرق » كما أنهم درجوا على تسمية أهالى تلك البلاد باسم « المشارقة » .

وهناك قطر عربى آخر ، يقع بين تونس وبين مصر ، وهو طرابلس الغرب أو « ليبيا » . كانت مقدرات هذا القطر العربى سارت ـ مدة قرون طويلة ـ مع مقدرات تونس ، وهو كان يدخل لذلك فى نطاق القطر المعروف فى التاريخ الإسـلامى باسم « إفريقية » . ولكن مقدراته انفصلت بعد ذلك عن مقدرات تونس انفصالا صريحاً ، وهذا الانفصال اشتد وتقوى ، بوجه خاص ، بعد استيلاء فرنسا على تونس ، وإيطاليا على ليبيا ، وأصبح هذا القطر ، قطراً قائماً بذاته .

ولهذا السبب ، تقسم بلاد المغرب الآن ، إلى أربعة أقطار أساسية ، هى : مراكش ، الجزائر ، تونس ، ليبيا .

فعلينا أن ندرس شؤون الثقافة والتعليم فى كل واحد من هذه الأقطار الأربعة على حدة.

إلا أن بلاد الجزائر بأجمعها ، والقطر التونسى بكامله ، وتسـعة أعشار من القطر المراكشى . . واقعة تحت سيطرة فرنسا وتحكمها . والسياسة الفرنسية ، هى التى وجهت ـ ولاتزال توجه ـ الثقافة والتعليم فى هذه الأقطار الثلاثة

لذلك يجدر بنا أن نلقى نظرة إجمالية الى سياسة فرنسا التعليمية فى المغرب بوجه عام ، من هذه الأقطار على حدة .

فرنسا والمغرب

إن فرنسا تحكم الجزائر منذ سنة ١٨٣٠ ، وتونس منذ سنة ١٨٨٢ ، وتسعة اعشار القطر المراكشي منذ سنة ١٩١٢ ، كما أنها استولت — خلال الحرب العالمية الأخيرة — على القسم الجنوبي من ليبيا — وهو القسم المعروف باسم فزان — ؛ وهي تسعى الآن إلى ترسيخ وتأييد نفوذها هناك ، بشتى الوسائل والأساليب .

ومجموع سكان هذه الأقطار المغربية — المرزوئة بالحكم الفرنسي — لايقل عن عشرين مليوناً ، وهو يزيد بذلك على مجموع سكان آسيا العربية .

فيجب على كل عربي مثقف ، أن يطلع — بشيء من التفصيل — على السياسة التي تسير عليها فرنسا — في شؤون التعليم والثقافة ، في هذه الأقطار العربية .

* * *

إن حكم فرنسا في الجزائر ، يختلف — من الوجهة القانونية والدولية — عن حكمها في تونس ومراكش .

لأن الجزائر تعتبر « مجموعة ولايات افرنسية » ، لاتتمتع بأي كيان سياسي خاص . وأما تونس ، فأنها تعتبر مملكة ذات كيان سياسي ، ولو كانت مخضوعة لحماية فرنسا ، بموجب معاهدة فرضت عليها بقوة السلاح ؛ وهي ذات سيادة خاصة ، من الوجهة القانونية ، ولو بصورة اسمية

ومراكش ، تشبه تونس بهذا الاعتبار : وهي أيضا تعتبر مملكة ذات سيادة ، خاضعة لحماية فرنسا .

فلكل من تونس ومراكش قوانين وأنظمة خاصة بها ، يضعها الموظفون الفرنسيون ؛ ولكنهم يعرضونها على تصديق رئيس الدولة الأعلى — وهو الباي في تونس والسلطان في مراكش — لاكسابها الصفة الشرعية .

وأما الجزائر ، فأنها تتبع القوانين الفرنسية مباشرة . في الواقع ، يوجد هناك بعض القوانين الخاصة بالقطر المذكور ، إلا أن القوانين المذكورة أيضا قوانين فرنسية ، تعرض على مصادقة رئيس الجمهورية الفرنسية .

ولكن هذه الأوضاع القانونية ، لا تخرج — في ساحة الفعليات — عن نطاق الأمور الشكلية ، وهي تخفي وراءها إدارة فرنسية فعلية . وأعمال استعمارية تحكمية .

فتسير فرنسا فى جميع هذه الأقطار الثلاثة نحو غاية واحدة ، هى السعى وراء تجريد البلاد المغربية من جميع مقومات العروبة ، وفرنستها الى أقصى حدود الامكان .

وللوصول الى هذه الغاية ، اتخذت فرنسا لنفسها سياسة أساسية ثابتة ، تتلخص بما يلى :

(أ) — اسكان أكبر عدد ممكن من الفرنسيين المستعمرين فى كل واحد من الاقطار المغربية ، لتسهيل فرنستها بصورة تدريجية .

(ب) — السيطرة على شؤون الثقافة والتعليم فيها سيطرة مطلقة ، لتوجيهها الوجهة التى تقتضيها مصالح فرنسا ومطامعها الأساسية .

ان الشطر الأول من هذه السياسة لا تدخل فى نطاق أبحاث هذا الكتاب . ومع هذا نرى من الضرورى أن نشير الى ان التـــدابير الفعالة التى اتخذتها فرنسا — تنفيذاً لهذه السياسة — أدت الى استيطان عدد لا يستهان به من الفرنسيين والأوروبيين فى الأقطار المغربية ، وقد تجاوز مجموع هؤلاء الآن المليون ونصف المليون .

فى الواقع ان الجاليات الفرنسية والاجنبية ، لا تزال أقلية ، لا تتجاوز فى أى قطر من أقطار المغرب عشر مجموع السكان . الا ان هذه الاقلية تتمتع بامتيازات كبيرة جداً ، تجعلها سيدة البلاد فعلا .

* * *

ان معرفة هذه الحقائق ضرورية لفهم أوضاع الثقافة والتعليم فى البلاد المغربية ، لأن هذه الأوضاع تختلف اختلافاً كبيراً ، بالنسبة الى كل واحدة من هاتين الطائفتين : طائفة الدخلاء الفرنسيين والأوروبيين ، وطائفة سكان البلاد الأصليين .

لأن خزانة الدولة العامة — فى كل قطر من الأقطار المغربية — تنفق بسخاء كبير ، لضمان كل ما يلزم لنشر التعليم بين الفرنسيين المقيمين فيها ، وايصال معاهد التعليم المؤسسة لأجل هؤلاء إلى أقصى درجات الكمال المقررة لفرنسا نفسها ... فى الوقت الذى تقتر فيه غاية التقتير فى الانفاق على تعليم سكان البلاد الأصليين . ولذلك يجد الباحث نفسه مضطراً الى درس حالة التعليم لدى كل واحدة من هاتين الطائفتين على حدة .

إلا أن الفرق بين الطائفتين المذكورتين — من وجهة التعليم — لا ينحصر بالكمية فحسب بل يشمل الكيفية أيضا ، كما يتضح ذلك من استعراض تطور سياسة التعليم التى أتبعتها فرنسا فى الأقطار المغربية ، منذ بدء سيطرتها عليها .

— ١ —

سياســـة التعليم

إن سياسة فرنسا الأساسية ـــ وخططها الجوهرية ـــ فى أمر تعليم المغاربة ، قد تخمرت وتشكلت بادئ الأمر ، فى الجزائر ، ثم انتقلت منها إلى تونس ، فمراكش .

فى الواقع أن هـذه السياسة تطورت بعض التطور ـــ وتكيفت بعض التكيف ـــ فى كل قطر من هذه الأقطار ، حسب ما تقتضيه أحوال البلاد الخاصة من ناحية ، وأوضاعه من ناحية أخرى .

غير أن التجارب الجزائرية ظلت الخبرة الأساسية لسياسة فرنسا التونسية والمراكشية وصارت بمثابة منبع الإلهام لها .

ولذلك ، يترتب على من يريد أن يكون فكرة صحيحة عن سياسة فرنسا التعليمية فى أفريقيا الشمالية أن يستعرض أولا الأطوار التى مرت عليها سياسة التعليم فى الجزائر ـــ ثم ينتقل من ذلك إلى بحث أطوار هذه السياسة فى كل من تونس ومراكش .

هذا ما سنفعله فيما يلى :

١ — فى الجزائر

لقد أظهر كتاب فرنسا وخطباؤها نزعتين أساسيتين ، عندما أرادوا أن يقرروا السياسة التى يجب اتباعها فى الجـــزائر ، عند بدء الاستيلاء عليها : التنصير والفرنسة ، وبتعبير أوضح العمل على إقامة الديانة المسيحية محل الديانة الإســـلامية ، وإحلال اللغة الفرنسية محل اللغـــة العربية .

وكانت هاتان النزعتان تتأزران فى أذهان الكثيرين من الفرنسيين ، لأنهم كانوا يرون أن التنصير يساعد على الفرنسة ، كما أن الفرنسة تسهل التنصير .

وقد تجلت النزعتان المذكورتان ، فى صراحة وجلاء ، فى عدة خطب وتقارير ، صدرت من رجال مسؤولين عقب بدء حملة الجزائر ، وبعد استقرار التحكم الفرنسى فيها .

معلوم أن ملك فرنسا « القديس لويس » كان قاد عدة حملات صليبية على أفريقيا الشمالية ومات أمام أسوار مدينة تونس ، خلال الحملة الأخيرة التى قادها إلى هناك .

يظهر أن الثأر لذلك الملك المقدس ، وإتمام العمل الذى قام به ، — دون أن ينجح فيه — ، كانا من الأمور التى لاتزال تدغدغ بعض النفوس الفرنسية ، منذ مدة طويلة .

ولذلك سارع ساسة فرنسا إلى الربط بين حملة الجزائر الجديدة ، وبين حملة القديس لويس القديمة ، وأظهروا هذا الارتباط فى الخطب الرسمية .

وقد قال الملك شارل العاشر فى خطاب العرش الذى ألقاه فى ٢٠ آذار سنة ١٨٣٠ مايلى : « إن الترضية الباهرة التى أريد الحصـــول عليها ، حفظا لكرامة فرنسا ، ستتحول — بعون الله تعالت قدرته — ، لمنفعة النصرانية » .

وقال وزير الحربية « كلرمون تونير » فى خطابه : « إن القدرة الصمدانية دعت حفيد القديس لويس إلى الثأر لكرامته ، ولكرامة الإنسانية والدين فى وقت واحد . إنها لم تفعل ذلك عبثا ، بل فعلته لحكمة توختها : ربما سنحظى بالسعادة بجعل أهالى تلك البلاد مسيحيين عن طريق تمدينهم » .

وكان القائد العام لجيوش الحملة ، أمر — عقب احتلال مدينة الجزائر — بالاستيلاء على « أعظم وأجمل جامع » فى المدينة لتحويله إلى كنيسة ، وأرسل خطابا للرئيس الدينى الذى يتولى ذلك العمل ، يقول له فيه « إنكم جئتم معنا إلى هنا ، لتفتحوا من جديد أبواب المسيحية فى أفريقيا ..»

ولهذه الأسباب كلها ، أخذت الارساليات الدينية تتوافد على الجزائر ، وتظهر نشاطا كبيراً فيها ، بمؤازرة رجال السياسة والجيش . وتسهيلا لتحقيق هذه الغاية ، تكونت جماعة دينية خاصة ، عرفت بأسم « الآباء البيض » ، لأنهم كانوا يلبسون البرانس البيضاء تشبهاً بالاهالى ، بغية تسهيل الاندساس بينهم ، والتأثير فيهم .

وقد بدأ هؤلاء أعمالهم بجمع الايتام فى المدارس والملاجىء والاديرة ، وتربيتهم تربية مسيحية . وقد استفادوا فى هذا المضمار ، من المجاعات التى توالت على البلاد ، والثورات التى قامت فى مختلف الجهات .

لأن هذه المجاعات كانت تؤدى — بطبيعة الأمر — إلى تيتيم وتشريد عدد كبير من الاطفال ، كما أن حركات القمع العنيفة التى كان يقوم بها جيش الاحتلال لكسر مقاومة الاهلين ، كان يزيد عدد اليتامى والمشردين . وكل ذلك كان يفسح مجالا واسعا لأعمال الآباء البيض ، ويزيد فى آمالهم التنصيرية . ومع كل ذلك ، فأنهم لم ينجحوا فيما كانوا يرمون اليه ، ويمكن

التأكيد بأن الجهود التى بذلها هؤلاء فى هذا السبيل لم تثمر من الثمرات الإيجابية ما يستحق الذكر، ولم تنتج نتائج فعلية سوى تنفير الناس منهم وتبعيدهم عن المعاهد الفرنسية بوجه عام. لأن الناس صاروا ينظرون الى جميع تلك المؤسسات كإكفخاخ منصوبة للتنصير .

وأما سياسة الفرنسة ، فهى أيضا ظهرت الى الميدان، منذ أوائل أيام الاحتلال ، وعقب الشروع فى تنظيم إدارة الجزائر .

وقد جاء فى تقرير رسمى مايلى : « إن ايالة الجزائر ، لن تصبح حقيقة « مملكة افرنسية » إلا عندما تصبح لغتنا هناك قومية (Nationale) والعمل الجبار الذى يترتب علينا انجازه هو : السعى وراء نشر اللغة الفرنسية بين الاهالى — بالتدريج — إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن » .

وجاء فى تقرير رسمى آخر وضع سنة ١٨٤٩ مايلى : « لاننس ان لغتنا هى اللغة الحاكمة (Ia langue souveraine) فأن قضاؤنا المدنى والعقابى يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون فى ساحته بهذه اللغة ، وبهذه اللغة يجب أن تصدر — بأعظم مايمكن من السرعة — جميع البلاغات الرسمية ، وبها يجب أن تكتب جميع العقود ، وليس لنا ان نتنازل عن حقوق لغتنا ، فأن اهم الامور التى يجب أن يعتنى بها قبل كل شىء ، هو السعى وراء جعل اللغة الفرنسية ، دارجة وعامة (Usuelle et vulgaire) بين الجزائريين — الذين قد عقدنا العزم على استمالتهم الينا ، وتمثيلهم بنا ، وادماجهم فينا ، وجعلهم افرنسيين (Franciser)

وقد كتب الوالى العام للجزائر ، فى ديباجة التقرير الذى قدمه للامبراطور نابوليون الثالث لاجل إنشاء مدرسة لتنشئة المعلمين سنة ١٨٦٥ مايلى: « إذا أردنا أن تخدم المدارس المعدة لقبول الشبان المسلمين على نشر اللغة الفرنسية وتعميم الآراء الفرنسية بسرعة ، يجب أن تنشىء مدرسة لإعداد المعلمين القادرين على أداء هذه المهمة » .

وخلاصة القول أن « فرنسة الجزائريين » كانت من أهم الاهداف التى يسير نحوها رجال السياسة والتعليم فى فرنسا .

ومما يجدر ذكره فى هذا الصدد ، إن بعض المفكرين ما كانوا يؤمنون بأمكان فرنسة الجزائريين ،ومع هذا كانوا يقولون أن الغرض الاساسى من تعليم الاهلين يجب أن يكون نشر اللغة الفرنسية فيما بين هؤلاء ، إلى أقصى حدود الإمكان .

حتى أن « فرديناند بويسون » — الذى يعد من أكبر بناة نظام التعليم فى فرنسا ،

والذى كان المساعد الأيمن لجول غريفى المشهور فى إصلاحاته الأساسية .. حتى فرديناند بوئيسون نفسه ثبت فى تقريره عن « خطط التعليم التى يجب اتباعها فى الجزائر » مايلى : « ان تعليم الأهالى المحلية ، يعنى — قبل كل شىء — تعليمهم اللغة الفرنسية » .

فى الواقع أن الأمبراطور نابليون الثالث أراد أن يحور سياسة فرنسا فى الجزائر تحويراً أساسيا ، إذ قال فى بيان أذاعه سنة ١٨٦٣ ما يلى « ان الجزائر ليست مستعمرة بالمعنى العام المفهوم من هذه الكلمة ، بل هى مملكة عربية. وانا اعتبر نفسى أمبراطوراً على العرب بقدر ما أرانى امبراطوراً على الفرنسيين . وأرجح أن أستفيد من شهامة العرب وشجاعتهم على أن أستغل فقرهم وعوزهم » .

ان السياسة التى جاء بها هذا البيان الامبراطورى حملت المسؤولين على زيادة الاهتمام بتعليم الجزائريين ، وعلى تكثير المدارس الخاصة بهم . إلا أنها لم تغير شيئا من جوهر سياسة التعليم فى الجزائر ، وهى اعتبار التعليم واسطة لنشر اللغة الفرنسية بين العرب ، بغية استمالتهم نحو فرنسا .

وفضلا عن ذلك ، معلوم أن الامبراطورية لم تعش بعد صدور هذا البيان أكثر من سبع سنوات . وأما بعد انقراض الامبراطورية — وزوال عهد نابليون — فلم يبق أثر لفكرة « المملكة العربية » وعادت الجزائر إلى منزلة « المستعمرة الفرنسية » بكل معنى الكلمة وعاد أمر تعليم الجزائريين إلى ما كان عليه من الاهمال . حتى أن معظم المدارس الفرنسية الاسلامية التى أنشئت فى عهد الأمبراطورية ألغيت بعد زوال ذلك العهد ، ولم يبق أى أثر لفكرة « المملكة العربية » الطارئة والقصيرة الأجل .

وظلت — على كل حال — فكرة « التعليم لنشر اللغة الفرنسية ، ولتحبيب فرنسا » هى السائدة عند رجال الفكر والسياسة المسيطرين على مقدرات القطر الجزائرى .

ومما يلفت النظر أن هذه السياسة التعليمية نفسها لم تسلم من معارضة المستعمرين الفرنسيين .. قامت جماعة منهم تعترض على تعليم أبناء المسلمين فى الجزائر ، ولو بهذه الصورة وباللغة الفرنسية وحدها ، ولو لهذه الغاية على وجه الاختصار .

وهذه المعارضة نمت وترعرعت بوجه خاص بين الفرنسيين الذين هاجروا إلى الجزائر واستوطنوها ، وأخذوا يستغلون مرافقها الطبيعية باستخدام العمال الجزائريين .

مهما كان نوع هذا التعليم — يضعف فى نفوس هؤلاء عادات الاستسلام والإنقياد ، ويولد فيهم نزعات الطموح والإنفلات، ولذلك أخذوا يتوسلون بوسائل شتى للحيلولة دون تعليم الجزائريين ، ولو تعليما بسيطا وبدائيا . حتى أنهم لم يتورعوا من التصريح برأيهم هذا على رؤس الأشهاد ، فى مؤتمر علنى عام .

فقد قرر المؤتمر الذى عقده المستعمرون الفرنسيون فى الجزائر — خلال شهر آذار من سنة ١٩٠٨ — ما يلى :

« ويلاحظ المؤتمر أن تعليم الأهالى يعرض الجزائر إلى خطر حقيقى ، من الوجهتين الاقتصادية والإستيطانية ، ولذلك يتمنى إلغاء هذا التعليم »

فى الواقع أن السلطات الحاكمة لم تعمل بهذا الإقتراح ، فلم تلغ المدارس وفقا لتمنيات هؤلاء المستعمرين ، ولكنها لم تسلم من تأثير هذه الملاحظات . ولذلك التزمت جانب الحذر الشديد فى نشر التعليم بين الجزائريين . ودرجت على اتباع سياسة « تحديد التعليم » من الوجهتين الكمية والكيفية .

ومن الأمور التى تمسكت بها فرنسا أشد التمسك فى سياستها التعليمية فى الجزائر ، هو إهمال اللغة العربية إهمالا كليا ، ثم مكافحتها مكافحة فعالة ، وتركيز الجهود حول نشر اللغة الفرنسية وجعلها « لغة التعليم » لجميع مواد الدراسة ، فى جميع المدارس بدون استثناء .

هذا ، وكان فى الجزائر عدد كبير من المدارس الدينية التقليدية — الكبيرة والصغيرة — ؛ لم تتعرض فرنسا على هذه المؤسسات التعليمية الدينية تعرضا مباشرا ، إلا أنها عملت على تقويض دعائمها وإضعافها شيئا فشيئا — مادة ومعنى — ، لكى تنهار وتتلاشى من تلقاء نفسها ، بمرور الزمن . فإنها أولا : توسلت بشتى الوسائل لاستنضاب مواردها المالية ، ثانيا : منعتها عن تدريس المواد التى لا تتصل بالدين اتصالا مباشراً ، وبذلك حرمتها من جميع وسائل التجديد والنهوض .

ولضمان الوصول إلى غايتها من هذه التدابير ، أخضعتها إلى رقابة شديدة .

وفى الأخير عندما رأت من الضرورى أن تتساهل قليلا فى أمر « منع تدريس المواد » الغير دينية » فى المدارس القرآنية ، أصدرت مرسوما تشترط فيه على كل من يريد تدريس مثل هذه المواد فى المدارس القرآنية ، أن يكون حائزا على السرتيفيكا الفرنسية . وعندما هاج الوطنيون على هذا المرسوم ، أصدرت بيانا صرحت فيه أن هذا الشرط ينحصر بالذين

يودون تدريس الحساب والتاريخ والجغرافيا ، ولايشمل من يتولى تدريس القرآن والدين فقط . وغنى عن البيان أن هذا التصريح كان بمثابة اعتراف على اشتراط معرفة اللغة الفرنسية ، حتى على من يريد تعليم أبسط مبادىء الحساب وأهم صفحات تاريخ الاسلام .

وقد توجت السلطات الفرنسية فى الجزائر ، التدابير المتخذة لمكافحة اللغة العربية بتقرير سياسة تعليمية خاصة بالبربر : زعم رجال الحكم وصناديد الاستعمار ، أن البربر لم يكونوا مسلمين تماما Ils ne sont pas complètement islamisés ولذلك لم يكن من العسير تفريقهم عن العرب ، ثم استمالتهم إلى فرنسا ولهذا السبب أكثرت فرنسا من إنشاء المدارس فى المناطق المسكونة بالبربر وبالقبائل البربرية ، غير أنها منعت فيها التكلم بغير اللهجات البربرية أو اللغة الفرنسية . وحظرت على الفقهاء الانتقال إلى المناطق المذكورة ، وتعليم القرآن فيها ، وذلك لقطع صلة البربر باللغة العربية ، وبكل مايتصل باللغة العربية ، وحتى بالقرآن الكريم

إن أحداث الحرب العالمية الأخيرة ودعايات « مكافحة الفقر والمرض والجهل » التى غمرت العالم خلال الحرب المذكورة وبعدها . . اضطرت فرنسا إلى التراجع فى سياسة « تحديد التعليم من حيث الكمية » ، ولكنها لم تحد قيد شعرة عن سياستها المتعلقة بتحديده من حيث الكيفية .. إنها لا تزال تكافح وتطارد اللغة العربية والثقافة الاسلامية فى الجزائر بكل الوسائل الممكنة . . ولا تزال تعتبر المدرسة واسطة « لتعليم اللغة الفرنسية ونشرها بين الجزائريين » ، ولاتزال تمنع عن المسلمين فرص التعليم الذى يتعدى حدود المبادىء الأولية ، بكل ما لديها من قوى ووسائل .

٢ - فى تونس

عندما استولت فرنسا على تونس — سنة ١٨٨١ — كانت استفادت من تجربة استعمارية فى الجزائر — دامت مدة نصف قرن . ولذلك سيرت سياستها العامة — وسياستها التعليمية فى تونس على ضوء التجارب التى كانت قامت بها فى الجزائر .

فى الواقع أن ظروف تونس كانت تختلف عن ظروف الجزائر من وجوه عديدة . فكان لابد لفرنسا من أن تكيف سياستها وفقا لمقتضيات هذه الظروف الجديدة ، ولكن نقطة البدء فى هذا التكييف أيضا كانت التجربة الجزائرية .

فإن فرنسا ، عندما استولت على الجزائر — سنة ١٨٣٠ — لم تجابه معارضة دولية قوية ومنافسة استعمارية صريحة من الدول الاوروبية . كما أنها لم تجد نفسها أمام مدارس تقليدية قوية ، ولا مدارس

عصرية حديثة . ولذلك استطاعت هناك أن تسير على سياسة استعمارية سافرة ، دون أن تضطر إلى برقعتها ، لستر مقاصدها الحقيقية .

وفضلا عن ذلك ، أن الاستيلاء على الجزائر كان حدث قبل أن تقوم نهضة فكرية واصلاحية بارزة فى أى قطر من الاقطار العربية أو الإسلامية . ولذلك استطاعت فرنسا أن تترك أهل الجزائر مدة طويلة فى غفلة عما يحدث من التطورات والنهضات فى سائر انحاء العالم العربى بوجه خاص والعالم الإسلامى بوجه عام .

ولكن الاحوال عند فرض الحماية الفرنسية على تونس كانت تختلف عن كل ذلك اختلافا كبيراً :

أولا — كان فى تونس جالية ايطالية أكبر من الجالية الفرنسية . وكانت ايطاليا تطمع فى امتلاك تونس قبل فرنسا وأكثر من فرنسا . ولهذا السبب لم تقدم فرنسا على الحاق تونس إلى بلادها — كما كانت فعلت فى الجزائر — ، بل رجحت أن تبقى الاسرة الحاكمة على رأس مملكتها ، مكتفية باخضاعها إلى « الحماية » ، وذلك توقيا من الاشكالات الدولية . فاضطرت بذلك إلى القيام بأعمالها ومشاريعها الاستعمارية بشىء من الحذر ، بوسائل مقنعة ، تحت ستار الحماية .

وفضلا عن ذلك ، لقد وجدت فرنسا نفسها فى تونس امام مدرسة تقليدية قوية الجذور من ناحية ، ومدرسة عصرية حديثة التكوين وشديدة الحيوية من ناحية أخرى : أنها وجدت نفسها أمام « جامع الزيتونه » المشهور فى كل بلاد المغرب شهرة جامع الازهر فى المشرق من ناحية ، وأمام المدرسة الصادقية المؤسسة حديثا وفق أساليب المدارس العصرية من جهة أخرى .

وفى الأخير ، إن حركات النهوض والإصلاح فى سائر أنحاء العالم العربى والعالم الاسلامى ، كانت قطعت شوطا كبيرا — قبل تاريخ فرض الحماية على تونس — ، فما كان فى استطاعة فرنسا ، أن تبقى التونسيين مدة طويلة فى غفلة عن تلك الحركات ، وفى معزل عن تلك النهضات ، ولاسيما أن تمنع عنهم تأثيراتها .

ولهذه الأسباب كلها ، لم تستطع فرنسا أن تسترسل فى مكافحة اللغة العربية ومحاربتها فى تونس ، بقدر ما كانت استرسلت فيها فى الجزائر . — أنها فى الواقع أنها اختطت لنفسها سياسة تعليمية مماثلة للسياسة التى انتهت إليها فى الجزائر : أنها أنشأت المدارس اللازمة لتعليم الفرنسيين والأوروبيين قبل المدارس اللازمة لتعليم التونسيين ، واهتمت برفع مستوى النوع الأول

من لمدارس دون أن تلتفت كثيرا إلى مستوى النوع الثانى منها وجعلت . الفرنسية لغة التعليم فى المدارس الفرنسوية العربية أسوة بالمدارس الفرنسوية البحتة . ولكنها — مع كل ذلك — اضطرت إلى جعل اللغة العربيـــة لغة رسمية بجانب اللغة الفرنسية ، كما اضطرت إلى افساح المجال إلى تعليم اللغة العربية فى المدارس العربية الرسمية ، ولو بصفة لغة إضافية. وفى الأخير ، إنها لم تستطع أن تقوض دعائم جامع الزيتونة ، كما أنها لم تستطع أن تحول دون اصلاح نظمها وتدريساتها — وفقا لما تقتضيه الحياة العصرية — مدة طويلة .

وفضلا عن ذلك كله ، لم تجد فرنسا فى تونس جماعات كبيرة — تستطيع أن تعتبرها « غير عربية » أو « غير مسلمة تماما » — ، كما فعلت فى الجزائر . ولذلك لم تجد فى تونس مجالا لتطبيق سياسة استغلال دعايات « العرب والبربر » لمكافحة اللغة العربية .

فلم تنجح فرنسا فى أمر مكافحة اللغة العربية ومحاربتها فى تونس بقدر ما نجحت فى الجزائر ، وإن كانت قد بذلت جهودا كبيرة فى هذا السبيل ، وإن كانت لا تزال تجعل « الحد من تيار اللغة للعربية والثقافة العربية » المحور الأصلى ، والهدف الأساسى فى سياستها التعليمية.

٣ - فى مراكش

وأما فى مراكش ، فقد سارت الأمور على أنماط أقرب إلى ما حدث فى تونس منه إلى ماتم فى الجزائر .

لأن هناك أيضا اضطرت فرنسا إلى فرض الحماية دون أن تلغى السلطنة ، كما اضطرت إلى اعتبار اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللغة الفرنسية .

وهناك أيضا اهتمت بتعليم الأوروبيين وأهملت تعليم أهل البلاد الأصليين . كما انها جعلت اللغة الفرنسية لغة التعليم فى جميع المدارس، بما فيها المدارس المخصصة لأبناء العرب المسلمين . ولكنها لم تستطع أن تكافح اللغة العربية بقدر ما كافحتها فى الجزائر . ومع هذا انها وجدت فى مراكش مجالا لمكافحة العربية أوسع من المجال الذى وجدته فى تونس ، وذلك للسببين التاليين :

أولا — لأن مراكش كانت — عند فرض الحماية الفرنسية عليها — أقل اتصالا من تونس سائر أنحاء العالمين العربى والاسلامى ، وأقل تأثرا منها بحركات النهوض والاصلاح القائمة فى العالمين المذكورين .

ثانيا — لأنه يوجد فى مراكش قبائل بربرية كثيرة ، تتكلم بلهجات بربرية خاصة ، وإن كانت مثقفة بالثقافة العربية الاسلامية ، فاستطاعت فرنسا أن تتخذ أحوال القبائل المذكورة ذريعة لاستصدار — « الظهير البربرى » المشهور لتبعد البربر عن العرب ، وقطع صلاتهم باللغة العربية ، وبكل ما يمت بصلة إلى العربية بما فى ذلك القرآن الكريم .

* * *

هذه هى الخطوط الأساسية للسياسة التى تمشت ولا تزال تتمشى عليها فرنسا فى أمر تنظيم وتوجيه التعليم فى البلاد المغربية التى تحكمها .

— ٢ —
شكاوى المغاربة ومطالبهم

تشكو الشعوب المغربية بأجمعها من أوضاع التعليم القائمة فى بلادهم ، وكثيرا ماينعت كتابها السياسة التى تسير عليها فرنسا فى هذا المضمار بقولهم أنها « سياسة التجهيل العام » لا « التعليم العام » .

وهم يطالبون - بكل وسيلة - إصلاح هذه الأوضاع إصـــلاحا شاملا ، وتغيير تلك السياسة تغييراً أساسيا .

ولعل أشمل الوثائق التى توضح وتلخص شكاوى المغاربة ومطالبهم فى أمور التعليم والثقافة ، هى التقارير التى وضعها أخيرا مؤتمر « طلبة المغرب العربى » الذى انعقد بدعوة من « جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين » .

فقد اعتادت الجمعية المذكورة أن تعقد مؤتمرات دورية ، للبحث فى مختلف شؤون البلاد المغربية وحاجاتها .

وانعقد آخر هذه المؤتمرات - وكان الحادى عشر - فى مدينة تونس ، سنة ١٩٥٠ واستمر من ١٥ إلى ٢٣ أيلول .

واجتمع فى المؤتمر المذكور عدد كبير من طلبة المغرب العربى ممثلين عن أقطارها الأربعة - وتوزعوا على ثلاث لجان هى : اللجنة الثقافية ، واللجنة الاقتصادية والاجتماعية، واللجنة السياسية . وكل واحـــدة من هذه اللجان وضعت تقريرا وافيا عن القضايا التى

اختصت بها . وهذه التقارير عرضت على المؤتمر ، ونوقشت فى جلسات عامة ، وفى الأخير اقترنت بمصادقة المؤتمرين ، مع بعض التحويرات التى اقترحت أثناء المناقشات .

وقد اعتبر المؤتمر نفسه ، بمثابة « مؤتمر رسالة الشباب » ولذلك صدر تقاريره بكلمة عن « رسالة الشباب » ، يعقبها تقرير عام .

ونحن سننقل فيما يلى ، تلك الكلمة وذلك التقرير ، مع تقرير اللجنة الثقافية ، بنصوصها الكاملة ، وسنلحق بها بعض الفقرات المقتبسة من التقارير الأخرى ، مما له علاقة بشئون الثقافة والتعليم . وكل ذلك بغية أعطاء فكرة واضحة عما يدور فى أذهان مثقفى المغاربة ، ويختلج فى صدورهم من انتقادات وشكايات ، ونزعات ورغبات .. حول أمور الثقافة والتعليم فى تلك الأقطار العربية .

مقدمة فى رسالة الشباب :

إن الشباب جندى مسخر لمصلحة بلاده ، لايمكنه الانفصال عن شعبه ولاعن الكفاح القومى العام الذى يقوم به الشعب بأسره ، موحداً لا انصداع فيه .

ورسالة الشباب ، الكبيرة الخطر فى الشعوب بصفة عامة ، وفى الشعوب المولى عليها بصفة خاصة ، ورسالة الشباب المغربى أن يكون فى طليعة الكفاح فى سبيل تحرير بلاده من ربقة الاستعمار ، وانتشالها من براثين الجهل والفقر والاستغلال . فهو عنصر لايتسنى له أن يؤدى رسالته الاستقلالية إلا إذا كان متشبثاً بالمثل العليا الإسلامية ، عاملا فى صرح القومية ، منتظما داخل الحركات الوطنية ، مؤمناً بشعار الوحدة العربية .

والشاب المغربى لن يؤدى رسالته نحو وطنه وشعبه إلا إذا كان معتمداً أولا وبالذات على نفسه ، متكلا على جهوده الخاصة ، موقناً أن كل إعانة يسديها اليه اخوانه وأصدقاؤه إنما هى إعانة تكميلية .

والشاب المغربى تفرض عليه رسالته أن لا ينزوى عن شعبه ، كما لوكان أجنبيا عنه ؛ بل يفرض عليه أن يتوجه إلى الشعب ، وأن يندمج فى صفوفه ، حتى يتخذ من نفسه آلة فعالة لمصلحة الشعب .

والشاب المثقف بوجه أخص ، فان الواجب يقضى عليه أن يتحمل إلى جانب هذه

الرسالة ، رسالة أخرى . تجعل منه الجندى العامل المسخر لتثقيف الشعب والسهر على تربيته تربية قومية عربية إسلامية .

التقرير العام :

الشعب المغربى شعب عربى مسلم .

والشاب المغربى يعتقد أن الثقافة فى بلاده يجب أن لا تكون إلا ثقافة اسلامية عربية قومية .

والشعب المغربى شعب يكافح فى سبيل استقلاله .

والشباب المغربى يعتقد أن الثقافة يجب أن تكون استقلالية ، مهمتها إنارة سبل المغربى لتحرير فكره ، واسترجاع كرامته ، وبناء كيانه ، وتخليص وطنه من مخالب الاستعمار .

والشعب المغربى وحدة فى الجنس والتاريخ والدين واللغة .

والشاب المغربى يعتقد أن الثقافة يتحتم أن تكون ثقافة موحدة فى برامجها ومبادئها ومراميها .

الشعب المغربى هو عماد الاستقلال ومنبع القوة . والشاب المغربى يفرض على الثقافة أن تكون فى سبيل الشعب وخدمته .

والشعب المغربى له الحق فى أن تكون له مكانة بين الأمم المستقلة الراقية .

والشاب المغربى يريد أن تكون الثقافة المغربية ثقافة حية ، مسايرة لروح العصر . لذلك يرى ان الحلول الموصلة إلى هذه الغاية هى :

١) — جعل اللغة العربية لغة رسمية للتعليم فى جميع أطواره .

٢) — جعل التعليم إجباريا للذكور والاناث فى طوره الابتدائى ومجانيا فى جميع أدواره .

٣) — إصلاح التعليم بالمعاهد الاسلامية المغربية بإدخال المواد الحديثة فيها والعلوم الحية . وإصلاح برامج التعليم ومناهجه وتوحيدها وفتح التخصص فى وجه خريجيها .

٤) — حرية نشر التعليم والثقافة مع احترام المبادىء الاسلامية العربية القومية .

٥) — تجنيد كافة المثقفين لمحاربة الأمية وتعميم الثقافة فى جميع أوساط الشعب ، أصبح النظام الاقتصادى والاجتماعى الأساس الأصلى الذى تشيد عليه النظم السياسية فى البلاد .

والبلاد المغربية غنية بخيراتها الكثيرة المتنوعة . أما الشعب المغربى ففقير يتخبط فى البؤس

والشقاء . إذ أن هذه الثروة لم تصرف فى مصالح المغربى ، بل احتكرها واستغلها أجنبى جشع عنيد .

فالشاب المغربى يريد استرجاع ثروة بلاده واستعمالها فى سبيل رقى الشعب وسعادته .

ولذا يجب أن لانسمح لأنفسنا بإيقاد نار التنازع بين عناصر أمتنا ، لأن المغرب العربى — مع إنكاره لنظام الاقطاعية — يجب عليه مالم يستقل أن يتحد فى كفاحه ضد عدو مستغل واحد ، وهو الاستعمار الغشوم وأعوانه الخونة .

ويرى الشاب انه من الواجب الاعتماد على اليد العاملة المغربية وجعلها تتمتع بمنتوج ما كدت فى إخراجه وصنعه واستهلاكه .

يتحتم أن يتمتع العامل بكامل حقوقه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ولذلك يرى الشاب المغربى ان من الضرورى :

١) — مشاركة العامل فى اقتصاد بلاده .

٢) — تأميم الشركات ذات المصلحة العامة .

٣) — السعى فى إنشاء نقابات حيث لا توجد ، باعانة المنظمات الثقافية القومية الموجودة وفى توحيد عمال المغرب العربى ، لتكتيل حركتهم النقابية والدفاع عن حقوقهم الحيوية .

المغرب العربى كل فى جنسه ودينه ولغته وثقافته وتاريخه واقتصاده ، ورغم الحدود الاصطناعية التى فرضها الاستعمار لتقسيمه وتضعيفه واستغلاله ، ورغم افتراءات المستعمر المدعى أن الجزائر قطعة من تراب هى عنه أجنبية .

فان الشاب المغربى مؤمن إيمانا قطعيا ان المغرب العربى وحدة لا تتجزأ . وان قضيته قضية واحدة ، وكفاحه كفاح واحد ، ومصيره مصير واحد .

وما سوء الحالة الراهنة التى آل اليها الشعب المغربى ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا إلا نتيجة الاستعمار البغيض الذي سلطه الأجنبي عليه ليعرقل وسائل تطوره ورقيه .

والشاب المغربى يصرح أمام العالم انه عازم على التخلص من هذا الاستعمار البغيض ، مكافحا كفاحا موحدا متواصلا حتى ينال المغرب العربى استقلاله التام .

لأن الشاب المغربى مؤمن بأن القضاء على هذا الاستعمار هو الوسيلة الوحيدة لتشييد نظام ديمقراطى يضمن لجميع أبناء المغرب العربى التمتع بكامل الحريات والحقوق الانسانية

على أساس المساواة ، يجعل حدا لاستغلال الإنسان للإنسان، ويقضى على جميع الإمتيازات ويقيم العدل فى المضمار الثقافى والاقتصادى والاجتماعى والسياسى .

تقرير اللجنة الثقافية

حول الثقافة فى المغرب العربى

يمتاز الانسان عن سائر المخلوقات بأنه مفكر ، أى قادر على الفهم والإتحاد فى السلوك. وقد ترتبت عليه بذلك المسؤولية عن سلوكه . وبما أن هذه المسؤولية عظيمة ، فإن مصير الإنسان متوقف على تقديرها . وسلوكه هو المعبر عن درجة هذا التقدير . فالخائن لوطنه مثلا لا تقدير عنده للمسؤولية بخلاف الساهر على واجباته نحو وطنه .

وتقدير المسؤولية إنما يكتسب بالتربية والتعليم الذين هما عماد الثقافة . وحظ الانسان من الثقافة هو حظه من المدنية . لأن الثقافة هى أهم عناصر المدنية ، إن لم تكن هى روح المدنية . فالأمة المتمدنة هى الأمة التى تملك أوفر حظ ممكن من الثقافة . فلا غرابة إذن أن نقول أن قضية الثقافة هى قضية المدنية . لأن رسالتها هى تحرير الفكر البشرى من جميع العوامل التى تؤخره ، وتحطيم جميع العراقيل التى تقف فى طريق تقدمه ، وتمكينه من فهم المشاكل التى تعرض له ، وتوجيهه نحو السلوك المستقيم . ولا غرابة إذا قلنا أن أمة لا ثقافة لها لا مدنية لها .

وقضية الثقافة فى بلاد المغرب العربى لا تزال من المشاكل الهامة التى تتطلب حلا عاجلا . والباحث فى حالة المغرب وتاريخه يجد أن له ثقافة خاصة . وهى مجموع الأثر الذى كونه فى نفوس المغاربة اتصالهم بمختلف الحضارات وخاصة الحضارة الاسلامية التى لا تزال إلى يومنا هذا المسيرة الخاصة للثقافة المغربية . وقد ضعفت هذه الثقافة منذ أن ضعفت الصلة بين المغرب العربى والأقطار الاسلامية الشقيقة ، وحل بها الاستعمار محاولا القضاء على كيانه . ولكن بالرغم من محاولة الاستعمار المتنوعة فى هذا السبيل وعرقلة التعليم العربى (فرض اللغة الفرنسية كلغة رسمية فى القطر الجزائرى — تحويل المساجد إلى كنائس — عدم تقدير الشهادات الاسلامية الأخرى ، وهلم جرا . . .) فان الروح القومية لا تزال باقية فى ثقافتنا ، إلا أن هاته الثقافة لم يمكنها أن تتمشى مع التقدم العالمى . فهى الآن لا تتفق ومقتضيات العصر .

ومن المعلوم أن الثقافة أهم عامل فى تكوين الوحدة الروحية والمعنوية . وأنها أساس

المدنية . فلهذا وجب الاعتناء بها . لاسيما فى المغرب العربى إذ أنها وسيلة لتحقيق الوحدة الفكرية بين أقطاره الأربعة المتحدة جغرافياً ودماً ولغة ودينا .

ولئن كانت الثقافة من عوامل الوحدة الفكرية للامة ، فان الاستقلال الثقافى أمر نسبى بين الأمم ، وذلك لأن المدنيات الإنسانية المختلفة قد تحاكت وتمازجت خلال العصور ، فنشأ من ذلك أثر مشترك فى الثقافة بين الأمم ، فأثرت به كل أمة مثقفة ، مع حفظها لميزتها الخاصة والطابع المحلى المتكون من آثار الموقع الجغرافى فى الدم والطبع وقوة الإنتاج الفكرى وبهذا الطابع يستطاع التميز بين الثقافات وتقدير خطر كل منها فى استقلال الفكر عند أهلها .

وللثقافة المغربية طابع عربى إسلامى ، كان ولايزال العامل الأكبر فى حفظ استقلال الفكر فى المغرب . إذ بالرغم عن اقتباسه من الثقافات الأجنبية الحديثة التى فتحت له آفاقا جديدة وتقدمت به فى شتى الميادين ، فان الفكر المغربى بقى مستقلا ، واتخذ ما اقتبسه من الأجانب سلاحا يقاوم به محاولات الاستعمار الأدماجى ، التى ترمى إلى مسخ الشخصية . وهذه المحاولات الأدماجية التى تجرى باساليب متنوعة ، قد ظهرت بوضوح تام الذى ينشر فى سائر القطر المغربى ثقافة لا تمت بأية صلة إلى الروح القومية المغربية . وذلك كاحلال التاريخ الفرنسى محل التاريخ الاسلامى . وقس على ذلك الجغرافية والأدب والفلسفة واللغة . وهو يرمى من وراء ذلك إلى إضعاف الثقافة العربية والتنقيص من شأنها لينفر منها أبناء المغرب ، ويقضى على الشخصية المغربية ومقوماتها . كما يرمى من جهة أخرى إلى إيجاد أعوان كمساعدين ، عسى يستعين بهم على استحكام الاستعمار فى المغرب العربى . وينبغى أن يلاحظ إن هذا التعليم يرمى إلى تجريد المغرب من شخصيته من غير إدخاله فى العائلة المغربية . بحيث أن عمله عمل مسخ وتشويه للشخصية المغربية فهو إذن خطر عظيم على كيان المغرب العربى .

ويتضح لنا هذا الخطر عندما ننظر إلى كيفية تنظيم التربية فى بلادنا ، والصبغة التى تصطبغ بها .

التربية

فالتربية عندنا قسمان : التربية الرسمية والتربية الحرة ففى المدارس التى أسسها المستعمرون لا يوجد أى اعتبار للقومية والشخصية والطبيعة المغربية فى التربية . ففى المدارس الفرنسية صبغت التربية بصبغة فرنسية ـ وكذلك فى المدارس الأسبانية . وهذه الصبغة دليل على أن

التربية الأجنبية عندنا ترمى إلى إحلال قيم معنوية أجنبية مقام القيم الوطنية . فاللغة المستعملة فى هاته المدارس هى لغة المستعمر وكذلك التاريخ والجغرافية . فهى تربية لا تلائم التطور الطبيعى للمغرب. وذلك لأن المغرب له مدنية قائمة على غير القيم التى تقوم عليها المدنية المغربية

أما التربيـة فى المدارس الحرة ، فأنها مصطبغة بصبغة قومية . لأنها تستعمل لغة الوطن وتنشرها . كما أنها تغرس المبادىء الدينية والخلقية الإسلامية . إلا أنها لا تزال ضعيفة . وذلك لأسباب متنوعة ، أهمها عرقلة التعليم العربى من طرف الاستعمار . وأما خارج المدرسـة والمعمل والحقل والإدارة فهى قائمة على كواهل رجال أدركوا ضرورة تعميم التربية فأنشأوا هيئات وجمعيات متنوعة : رياضية للتربية البدنية ـــ كشفية لتقوية الروح القومية ـــ دينية وثقافية لنشر الدين ومكارم الأخلاق ومحاربة الأمية ـــ نسائية كالاتحاد النسائى التونسى وجمعية النساء المعلمات الجزائريات ، والحركة النسائية بمراكش وليبيا تعمل على رفع مستوى المرأة ـــ نقابية ، كالاتحاد العام التونسى للشغل ـــ أحزاب سياسية ، لتربية الجماهير تربيـة سياسية والدفاع عن حقوق الوطن ـــ تمثيلية وموسيقية ، تعمل لتربية الشعب بواسطة التمثيل والغناء والموسيقى ـــ صحف ومجلات سياسية وأدبية .

فهذه المؤسسات القومية تجد مقاومة شديدة ، وتعترضها عراقيل كثيرة من طرف الإستعمار الذى داس جميع الحريات الأساسـية وجميع حقوق الانسان بالمغرب . ففى مراكش مثلا لا توجد حركة كشفية حرة ، ولا نقابة وطنية ، وحرية الصحافة وغيرها مخنوقة فى مراكش والجزائر . وقس على ذلك جميع الحركات .

وبناء على ماتقدم يجب ـــ لكى يتقدم المغرب تقدماً طبيعياً ، ويجارى الأمم الراقيـة ويشارك فى المدنية الإنسانية وبناء عالم راق ـــ أن تكون التربية فيه تربيـة قومية ، تراعى فيها المحافظة على وحدته المعنوية والروحية والطبيعية . فأن المغرب كل لا يتجزأ ، وحدته الجغرافية والتاريخ ، وأن الشعب المغربى شعب عربى مسلم. يجب أن تكون تربيتـه قائمة على مراعاة هذه الحقيقة . مع إدخال الأساليب الجديدة فى التربية الحديثة التى نجحت بها الأمم الراقية . وهذا دليل واضح على أن الإستعمار الأوروبى فى المغرب يحارب كل توجيه قومى ويريد أن يقضى على كيانه .

التعليم ـــ فما أن بسط الإستعمار هيمنته على الوطن حتى انقلبت فيه الوضعية وتغيرت الحالة رأساً على عقب . فشن الإستعمار حرباً شعواء على التعليم العربى بتشريع القوانين الجائرة

إصدار القرارات وغلق أبواب المدارس ومحاكمة المعلمين الأحرار بدون موجب . كل ذلك قصد القضاء على الروح العربية ، وفصل المغرب عن الأقطار العربية الشقيقة . ولئن لم يتمكن الإستعمار من اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية بكل من القطر المراكشي والقطر التونسي . نظراً لوضعيتهما السياسية، فأنه أصدر سنة ١٩٣٨ قانونا يعرف بقانون شوتان . يقضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر . وهكذا لما كان الوضع السياسي متنوعا في المغرب ، وجب لمن يريد بسط حالة التعليم أن يبين ماهو عليه في مراكش والجزائر وتونس .

والتعليم في المغرب قسمان : التعليم الرسمي والتعليم الحر . فالتعليم الرسمي وضعه الاستعمار لغاية سيئة للمغرب ، إذ ليس القصد من هذا التعليم التثقيف وتوسيع المدنية المغربية من العلوم العصرية والسير بالمغرب إلى درجة عالية في التقدم ، والأخذ بيده لإثبات ذاتيته والقدرة على المشاركة في المدنية العالمية . وإنما القصد منه عكس ذلك تماما ، لتثبيت أقدام الاستعمار في البـــلاد . وهـذا التعليم يرمي إلى تسهيل السياسة الإستغلالية ، لأنه وسيلة الى سهولة التخاطب بين المستعمر والمستعمر . وإذا نحن نظرنا إلى آثاره في نفسية المستعمر وجدنا له أسوأ أثر . اذ يخلق في نفسه مركب النقص ، بحيث يبقى شـاعرا بدين ثقيل على عاتقه نحو المستعمر . كما أنه ينظر بعين الإكبار والإجـلال اليه ، اذ أتاه بكتابة وقراءة ومعارف بينما لا يجد في وطنه ما ينشىء في نفسـه الإعتزاز بذاتيته أو مركب التفوق أزاء الأجنبي . ومن جهة أخرى فإن التعليم الرسمي منظم تنظيما ناقصا . لايسد حاجة الفكر إلى الثقافة . فهو في المراحـــل الثلاث واضح النقص والعجز على أداء رسالته الثقافيـة كما يجب . ولا يمكن بطبيعة الحال أن يكون صالحا، ونية مؤسسيه سيئة . وهذا النقص بارز في الاحصائية لعدد التلاميذ المغاربة الذين يسمح لهم بمزاولة التعليم فإن عددهم ضعيف جدا ،

فني الجزائر ٤ ٪. بالنسبة للاطفال الذين هم في سن التعليم . وفي مراكش ٤ ٪. وفي تونس ١٠٪. هذا فيما يتعلق بالتعليم الابتدائي . وأما التعليم الثانوي فانه يكاد أن يصبح من المستحيل على المغربي أن يزاوله . لأن النظام الاستعماري يشدد كثيرا على المغاربة في شروط الدخول إلى المدارس الثانوية . بينما يفسح المجال لأبناء المستعمرين من وجهة أخرى . فان هذا التعليم لا يستطيع أن يتعاطاه إلا الأغنياء . والاستعمار قد ملك العباد وأفقر البلاد .

وأما التعليم العالي ، فان عـدد الطلبة المغاربة فيه يكاد أن يكون معدوما . ففي جامعـة الجزائر العاصمة يوجد مائة من المغاربة ، بينما عدد الأجانب يجاوز الخمسة آلاف .

وأما التعليم الفنى والصناعى ، فانه معدوم فى الجزائر ، ولا يوجد منه إلا بعض مدارس ابتدائية ، يتخرج منها الشباب مزوداً بمعلومات قليلة لاتضمن له الاستقلال فى الحياة . ولما لهذا التعليم من الأهمية فى العصر الحاضر المصطبغ بالصبغة الصناعية ، فان الاستعمار لم يرد أن ينشره بين الأهالى حرصا على الاستقلال بخيرات البلاد واستغلال مناجمها لفائدته .

وأما التعليم الإدارى فلا وجود له فى الجزائر . وتوجد فى تونس مدرسة إدارية وأخرى فى مراكش لم تؤسسها إلا أخيراً . ولم تظهر ثمرة هذا التعليم . ولن تظهر له ثمرة لأنه ناقص جداً . إذ ليس القصد من المستعمر أن يتكون رجال قادرون على تسيير دفة الحكم ، وانما قصده أن يجد أعوانا يسهلون عملية الاستتباب فى البلاد . وتوجد فى تونس مدرسة للحقوق التونسية ، لا يفى برنامجها بحاجة التونسيين فى هذا الميدان . ويكفى دليلا أن الإمتحانات كلها شفاهية كما أن شهادتها تعتبر من حيث القيمة فى درجة الشهادات الثانوية .

وفيما يتعلق بالتعليم الحر ، فأنه يحمل صبغة قومية ، إلا أنه قد أصابه ضعف كبير بسبب المضايقات المتنوعة من طرف الإستعمار . ويتجلى هذا الضعف فى المعاهد الإسلامية المغربية ككلية الزيتونة وكلية القرويين ومعهد ابن باديس فأن التعليم فيها لم يجار التعليم العصرى الغربى لا عجزاً من المغاربة على مجاراة الأجانب ، بل قهراً وتضييقا من طرف المستعمر .

وقد أظهر الشعب المغربى الرغبة فى مجاراة الأمم المتقدمة فى ميدان التعليم بفتح مدارس حرة على الشكل الحديث . إلا أنه لا يلاقى التشجيع الكافى بل يلاقى محاكمات و مضايقات شديدة ولا ننسى أن نفقات هذا التعليم يتحملها الشعب المغربى . والتعليم بوجه عام انما يترعرع بسبب جميع التكاليف المادية التى يتطلبها . ولكن ميزانية المغرب ليست بيد المغاربة . وهى لا تصرف فى صالح المغرب . بل معظمها يخصص لرجال الجند والشرطة والحرس المتنقل وغير ذلك من المؤسسات الإستعمارية لحفظ النفوذ الإستعمارى ، كتوسيع السجون وما أشبه ذلك . ولهذا يجب أن تكون ميزانية المغرب بيد المغاربة لتصرف فى صالح البلاد . ولا يكون ذلك إلا اذا كان المغرب متمتع بالسيادة المطلقة والإستقلال التام . وبما أن ازدهار الثقافة لا يمكن إلا فى جو من الحرية والأمن والإستقرار وأن الإستعمار يسمم هذا الجو ويعطل المواهب الفكرية المنتجة ويحرم المغرب من الثقافة الملائمة لطبيعته ، فأن استقلال المغرب ضرورى لإزدهار الثقافة فيه . وبالجملة يجب أن تكون هذه الثقافة :

١) ثقافة قومية ، أى عربية اسلامية ،

٢) وأن تكون تحريرية .
٣) وأن تكون موحدة .
٤) وأن تكون فى خدمة الشعب .

الحلول العامة (المقررات العامة):

أن التدابير التى يجب أن تتخذ لحفظ كيان المغرب العربى وتزويده بثقافة ملائمة لطبيعته يمكن تلخيصها كما يلى :

١) جعل اللغة العربية لغة رسمية فى كامل المغرب وتعريب التعليم فى مراحله الثلاث .
٢) تعميم التعليم وجعله اجباريا ومجانيا للذكور والاناث
٣) توحيد برامج التعليم وتجديدها مع أخذ ما يصلح لها من برامج الشرق والغرب الحديثة
٤) اصلاح التعليم القومى بالمعاهد الإسلامية المغربية ، وذلك بادخال المواد الحديثة من العلوم الحية فيها واصلاح برنامج التعليم وتجديد طريقته وفتح أقسام للتخصص .
٥) حرية التعليم وفتح أكثر عدد ممكن من المدارس العربية على الشكل الحديث وتخصيص اعتمادات له .
٦) الإعتراف بشهادات المعاهد الإسلامية كالزيتونة والقرويين وابن يوسف ومعهد ابن باديس فى القسنطينة ، كالأزهر فى سائر المغرب .
٧) إرسال بعثات من الطلبة الى الجامعات والمدارس الأجنبية الكبرى ومدهم بمساعدات مالية ليتابعوا دروسهم .
٨) تبادل المعلمين بين أقطار المغرب العربى مع استجلاب أساتذة من المشرق .
٩) فتح مدارس عربية لترشيح المعلمين والمعلمات فى كل من الأقطار الأربعة .
١٠) ضمان حرية التفكير والتعبير .
١١) إنشاء مباريات فى الإنتاج الثقافى والمكافأة على أحسن إنتاج فى التأليف والترجمة والإنتاج الفنى .
١٢) تشجيع الأبحاث العلمية ببناء معاهد وفتح مكاتب خاصة بها وتسهيل البحث خارج البلاد مادياً وأدبياً .
١٣) تسهيل الطبع والنشر للمؤلفات العربية القديمة والحديثة .
١٤) تنشيط التعليم الفنى والصناعى ونشره بصفة واسعة .

١٥) — إدخال تعليم التصوير والموسيقى العربية فى السنوات الأخيرة من التعليم الابتدائى من المدارس العربية وفى التعليم الثانوى .

١٦) — تكوين جامعة للجمعيات الإسلامية الرياضية داخل كل قطر متصلة مباشرة بالجامعة العالمية ومشاركة المغرب العربى فى الألعاب الأولمبية والمباريات الدولية .

١٧) — إدخال الرياضة البدنية رسمياً فى برامج المدارس والمعاهد الإسلامية ، كالزيتونة بتونس والقرويين وبن يوسف بمراكش ومعهد ابن باديس بقسطنطينية .

١٨) — ترغيب أكبر عدد ممكن من الطلبة المغاربة فى التعليم الفنى وحملهم على تعاطيه قلباً وقالباً بالرغم من الصعوبات الجمة التى تعترضهم فى سبيل الدراسة .

الحلول التى تتعلق برفع مستوى الكهول الثقافى :

١) — فتح مدارس للكهول يتعلمون فيها القراءة والكتابة والحساب .

٢) — محاضرات فى المواضيع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والخلقية والتاريخية .

٣) — عرض أفلام سينمائية علمية وتاريخية واجتماعية .

٤) — تشجيع المؤسسات الحرة للتربية والتعليم كمنظمات الشباب المتنوعة للذكور والأناث والسيدات .

٥) — فتح خزائن كتب شعبية للمطالعة .

ومما جاء فى تقرير اللجنة الاقتصادية والاجتماعية :

يقترح المؤتمر : فيما يخص الاصلاحات الصناعية «توجيه الشعب توجيها صناعيا ، وذلك بتكوين مدارس صناعية ، مع ضمان مستقبل خريجيها » (الاقتراح الثالث من قسم الصناعة).

كما انه يقترح ، فيما يخص الإصلاحات الفلاحية « إعداد تعليم فلاحى محكم وإلقاء دروس على المزارعين وتعليم الأساليب الفلاحية الحديثة » (الاقتراح الثالث من قسم الفلاحة) .

إلا أن المؤتمر يعتقد ، بأن هذه الحلول جميعها لا يمكن انجازها ، إلا فى بلاد حرة من قيود الاستعمار ، وعلى أساس برنامج تدريجى شامل .

ولذا يدعو المؤتمر الأقطار الأربعة الشقيقة إلى تنسيق مجهوداتها وتوحيد وسائل عملها ، للاسراع بتحرير المغرب العربى من الاستعمار ، وإنجاز فلاحة قومية عصرية تسد حاجات البلاد قبل كل شىء ، وتكون أحد عناصر ثروته ورفاهيته » .

ويقترح المؤتمر فيما يخص الاصلاحات الاجتماعية « تجنيد الطالب للمشاركة فى النهوض الاجتماعى» وذلك :

ـــ بالمساهمة بصفة فعلية فى حياة العامل ومقاومة الأمية ، ورفع مستوى الشغيل (العامل) الفكرى وتحسين أسباب صحته .

ولهذا الغرض ، يجب :

ـــ تسخير الطلبة لإلقاء دروس ليلية موجهة للعملة .

ـــ إحداث جمعيات مشتركة بين المثقفين والعملة .

ـــ تنظيم دروس يلقيها أعضاء ومؤسسات الشباب على جماعات من الشغالين .

ـــ السعى فى عرض أفلام تثقيفية على العملة .

ـــ تكوين ارتباط متين بين جمعيات الطلبة والحركة الشغيلة . مثال ذلك :

١) ـــ تكوين لجنة اتصال بين الطلبة والعملة للاسعاف الطبى والاستشارات القانونية .

٢) ـــ قيام الطالبات ببعض الواجب ازاء نسوة العملة .

٣) ـــ إنشاء مكتبات وبيوت للثقافة الشعبية .

ومما جاء فى تقرير اللجنة السياسية :

استقلال المغرب العربى ووحدته ـــ أن الشباب المغربى فى الأقطار الشقيقة الأربعة (المغرب الأقصى ـــ الجزائر ـــ تونس ـــ ليبيا) المؤمن برسالته الشاعر بخطورة الظروف الحاضرة ، والعازم على الأخذ بنصيبه من كفاح أمته ، يتخذ قراره الصريح ليكون فى طليعة الكفاح الوطنى ، حتى يفوز المغرب العربى قاطبة باستقلاله التام ووحدته الطبيعية المنشودة حسب القرار الذى اتخذه كل من الأقطار الأربعة ، والذى لا محيد عنه ولا هوادة ، قبل التحصيل عليه غير منقوص .